نظرة حول قضية التعريب فى الجزائر

للأستاذ عبد الله ركيبى
الأستاذ بجامعة الجزائر
والأستاذ المحاضر بالمعهد

لعل الحبر الذى سال عن قضية التعريب فى الجزائر لايوازيه أو يماثله سوى ما أريق من الدم دفاعا عن حرية الجزائر واستقلالها ؛ ذلك أن قضية التعريب ترتبط أساسا بهوية الشعب الجزائرى .. بانتمائه إلى أمة لها خصائصها وتفردها عن بقية الأمم والشعوب ، مثلما لكل فردهويته الخاصة وتفرده وامتيازه . ومن هنا كان ذلك الارتباط العضوى بين قضية التعريب وحرية الجزائر.

وقضية التعريب قديمة وجديدة فى نفس الوقت : قديمة لأن الاستعمار الفرنسى كما أصبح معروفا وشائعا لدى الجميع حاول القضاء على الذاتية العربية الجزائرية المتمثلة فى اللغة وبقية الخصائص الأخرى . وجديدة لأنها ظهرت كقضية ملحّة عقب الاستقلال الذى صاحبه تغير وجه الجزائر من بلد استُعمر طويلا إلى دولة حرة مستقلة تسعى لاسترداد مكوناتها ومقوماتها الذاتية. وهنا كان لابد أن ينشأ ذلك الصراع حول هذه القضية بين أنصار التعريب وخصومه — ولانقول أعداءه . وظهرت شعارات كثيرة تتصل بالتعريب كما ظهرت تعابير ومصطلحات تتصل باللغة العربية ، بعضها دوافعه غير مبرأة من الأحكام المسبقة والنوايا المبيتة .

وقبل أن نناقش المراحل التى مربها التعريب لابد من التعرض لجملة من المسائل التى أثيرت حول هذا الموضوع والتى تتصل به من قريب أوبعيد.

من هذه المسائل أن التعريب بالنسبة للجزائر لايقصد منه تعريب المصطلحات وإنما يقصد منه إحلال اللغة العربية محل اللغة الوافدة الأجنبية

وهى اللغة الفرنسية ، وإعادة اللغة القومية إلى مكانتها التى كانت عليها قبل الغـزو الفرنسى .. ومن هنا نشأت تلك الشعارات التى تنادى مثلا : « بالازدواجية » أى بقاء اللغة الفرنسية بجانب اللغة العربية ، على اعتبار أن الفرنسية لغة حية تمثل نافذة من النوافذ التى تطل منها الجزائر على العصر الحديث والحضارة الغربية الحديثة . وبالطبع فإن هذا الشعار ظاهره الرحمة ولكن باطنه فيه العذاب للغة العربية ؛ لأن بقاء اللغة الأجنبية التى تتمتع بماض سادت فيه زمنا طويلا يجعل من اللغة العربية لغة ثانية والمفروض أنها الأولى فى بلد له انتماؤه الخاص وكيانه المتفرد .

كذلك أثيرت قضية اللغة « الكلاسيكية » و« العصرية » على اعتبار أن للغة العربية ماضيا قديما كلاسيكيا لايتماشى مع العصر الحديث وما يتطلبه من لغة متطورة حية نامية متجددة فى مصطلحاتها وتعابيرها ، وكثيراً ما يخلطون بين« العامية » و« العصرية » جريا وراء المفاهيم المستعارة من الغرب والتى اطلقت من بعض المستشرقين أومن جلهم على« اللغة العامية » بهذين المصطلحين : الكلاسيكى والعصرى .

وهى نظرة فيها افتئات على اللغة العربية باعتبارها لغة حية يمكنها أن تساير العصر . وإطلاق هذين المصطلحين على اللغة العربية يظلمها ؛ لأن الذين اطلقوهما عليها كان فى ذهنهم ماحدث للغة اللاتينية واللغات الأوروبية التى انفصلت عنها .. يظلمها من ناحيتين : الأولى : أن اللغة العربية لم تمت كما ماتت اللاتينية . والثانية : أن اللهجة العامية العربية فى الجزائر أو فى غيرها من الأقطار العربية لا تمثل لغة بأتم معنى الكلمة ، لها مقومات اللغة وقواعدها ومصطلحاتها .

كذلك أثار خصوم التعريب إلى جانب هذا ، فكرة الحماس والواقعية التى ترددت بالنسبة للتعريب على اعتبار أن الذين يدعون إليه يغفلون بسبب حماسهم وفى غمرة اندفاعهم مراعاة الواقع الذى فرضه الاستعمار على الجزائر لغة وإدارة وتفكيراً وثقافة وحضارة . هذا الشعار أيضاً مغلوط من أساسه ،

فليس الحماس لمبدأ من المبادىء أوهدف من الأهداف أوقضية من القضايا عيبا من العيوب التى يوصف بها الشخص بل العكس هو الصحيح ، إذ لم نعثر فى التاريخ على قضية إنسانية أو وطنية أو قومية تحققت بغير حماس وتضحيات أيضا .

وإلى جانب هذا كله أثيرت قضية التفتح والأصالة ، بمعنى أن الاكتفاء باللغة العربية سيجعل من الجزائر بلدا منغلقا على نفسه حضاريا ومن ثمةفلابد من تفتحه على الحضارة العالمية بواسطة اللغة الفرنسية .. على أن الأصالة تتمثل فى الأخذ من التراث العربى والحضارة العربية والانتماء لهذه الحضارة. ولكن القضية فيهما معا تكمن فى السؤال التالى :

ما مدى تفتحنا على الحضارة الغربية وما مدى ما نأخذه من التراث العربى؟ هناك من يذهب تحت شعار التفتح إلى الارتماء فى أحضان الحضارة الغربية بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات . كما أن هناك ممن ينادون بالأصالة من يدعو إلى الرجوع إلى التراث العربى الإسلامى والأخذ منه والعيش فيه وحده بما فيه أيضاً من إيجابيات وسلبيات .

والواقع أن كلا الأمرين فيه شطط وإسراف : فالاندفاع فى هذا الاتجاه أو ذاك سيخلق عدم توازن فى الحياة الفكرية والثقافية بالنسبة للجزائر .. وإذن لابد من نظرة أعمق وأوسع تأخذ من الحاضر ولاتهمل الماضى وتوازن بينهما فيما تأخذ وماتدع ، لأن الانفتاح المطلق لكل التيارات والرياح قد يقتلع الجذور الأصيلة الضاربة فى أعماق الشعب الجزائرى ، وكذلك الانطواء قد يطمس شخصية الثقافة العربية المتفتحة الأصيلة .

... هذه جملة من قضايا تثار حول معركة «التعريب فى الجزائر» وهى جديرة بأن يطول فيها الشرح والتفسير وأن يستمر فيها النقاش لأنها قضايا حيوية تتصل باللغة والفكر والثقافة العربية وتتصل أساسا بالشخصية العربية التى تمر فى الجزائر بمرحلة تحتاج فيها إلى مزيد من التعميق والفهم .

* * *

ويبدو أنه لابد من إلقاء نظرة تاريخية على المراحل التى مر بها «التعريب» فى الجزائر حتى تكتمل الصورة وحتى نربط بين الماضى والحاضر ، وكما أشرت سابقا فإن هذا المصطلح نشأ فى الجزائر بعد الاحتلال الاستعمارى فى الثلث الأول من القرن الماضى ، واصطدمت الحضارة العربية بالحضارة الغربية الجديدة ووجدت إلى جانب اللغة العربية اللغة الغازية الوافدة ، إذ قبل هذا الغزو كانت اللغة العربية فى الجزائر – كما فى غيرها من البلدان العربية الأخرى – هى اللغة الأولى والأخيرة .

وليس من همنا فى هذا المقال أن نتعرض للمدرسة الجزائرية فى هذه الفترة وللتعليم فيها وللغة العربية وللثقافة العربية أيضاً وماصحب هذا كله من محاولة المسخ والتشويه لهذه المقومات كلها . وإنما يهمنا فقط أن نتعرض للمراحل التى مر بها التعريب تاركين الحديث عن هذه الموضوعات إلى مناسبة أخرى . ويمكن لنا أن نحدد أربع مراحل للتعريب .

المرحلة الأولى : تنتهى بنهاية القرن الماضى وهى التى حاولت فيها الإدارة الفرنسية فى الجزائر بمعاونة بعض المستشرقين أن تحصر اللغة العربية فى نطاق ضيق جدا فتقصرها على العامية وتعليمها للفرنسيين بهدف فهم الشعب الجزائرى وتفكيره ، كما أنها قصرت اللغة العربية الفصحى وتعليمها على بعض الموظفين الذين تحتاج إليهم كصلة ورابطة بين الإدارة الفرنسية والشعب الجزائرى .

فى هذه الفترة كان التركيز فيها على العامية بصورة واضحة فى الكتب التى ألفت لهذا الغرض وفى المقالات التى نشرت فى المجلات العلمية والثقافية . ويكفى فقط أن نستشهد بنص واحد لأحد المستشرقين الذين لعبوا دوراً كبيراً فى هذا المجال ونعنى به المستشرق « ديسبارمى » الذى كان أستاذاً بالجزائر فى هذه الفترة فهو فى أحد كتبه « الفوائد فى العوائد والقواعد والعقايد » يتحدث فى سخرية فيحمد الله على أن جعل للعرب لغتين : اللغة الفصحى واللغة العامية وهو يوجه خطابه للتلاميذ الفرنسيين فيقول : « لهذا السبب

واجب على كل واحد من التلاميذ النصرانيين يتعلم هذه اللغة العامةباش يتكلم مع جميع المسلمين ويفهم واش يتكلموا .. »

فالهدف إذن من تعليم اللغة العامية للفرنسيين واضح وهو فهم عقلية الأهالى الوطنية .. أما عندما يوجه خطابه إلى الجزائريين فإنه يدعوهم لتعلم العربية الفصحى للانخراط فى سلك التراجمة والموظفين والأئمة والمفتشين والقضاة .. الخ . وكلا الهدفين لايخدم إلا المصلحة الخاصة للاستعمار الفرنسى ولايخدم الثقافة العربية ولا اللغة العربية كأداة لهذه الثقافة .

وقبل المستشرقين كان هناك من لعب دوراً فى الحفاظ على التراث العربى والثقافة العربية واللغة ، وأعنى بها الزوايا التى حافظت على التعليم باللغة العربية على الطريقة التقليدية ولكن تأثير هذا التعليم كان محدوداً بالنسبة لمستوى المتعلمين أوعددهم .

أما المرحلة الثانية : فتبدأ مع مطلع القرن الحالى بظهور الحركة الإصلاحية والأحزاب الوطنية التى أخذت تتدارك حالة اللغة العربية وماوصلت إليه من ضعف وهزال أصابها مدة طويلة . وإذا كانت دعوة بعض السياسيين أو بعض العلماء فى الوقت الماضى قد ارتفعت من وقت إلى آخر تطالب بتعليم اللغة العربية واحترامها فإن هذه الدعوة لم تقو ولم تتسع إلا فى بداية القرن الحالى ، حيث أصبحت مطلبا يرتبط بالمطالب الأخرى التى رفعها الشعب الجزائرى ونادى بها فى مناسبات مختلفة ، بل أكثر من هذا الشعار عملت الحركة الإصلاحية وبعض الأحزاب الوطنية كحزب الشعب على تدارك الأمر ، وذلك بفتح المدارس الحرة ، وتدريس اللغة العربية وآدابها وإحياء تراثها ، والعمل على تطورها وتحريرها من الجمود الذى علق بها وخاصة فى بداية الثلاثينات عندما تكونت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» التى يرجع لها الفضل الكبير فى التمكين لهذه اللغة فى البيئة الجزائرية والحفاظ عليها وعلى ماضيها العريق وعلى الثقافة العربية الأصيلة . ولم يقتصر الأمر على المناهج والبرامج التعليمية أو على المحاضرات والدروس بالمساجد أو بالنوادى

أو على الصحافة التى لعبت دورا هاما أيضاً فى هذا المجال ، لم يكن هذا فحسب بل تعدى الأمر إلى الإدارة حيث كانت هذه المدارس الحرة تتعامل فى أنظمتها الإدارية باللغة العربية .

وهذا الدور يحتاج إلى دراسة مستفيضة خاصة لأنه يمثل النواة الحقيقية للتعريب ، تعليما وإدارة وتفكيراً وهو مالايتسع له هذا المقال .

تنتهى هذه المرحلة بقيام الثورة الجزائرية إذ أن المدارس الحرة قد أغلقت وأن الاضراب عن التعليم قد وجد استجابة كاملة من التلاميذ والطلبة ، وبذلك انتقلت قضية التعريب إلى جيش التحرير الذى احتضنها فى الجبال بفتح مراكز للتعليم أو بتعريب مراسلاته وقوانينه وأوامره مما يشكل مرحلة ثالثة تحتاج أيضاً إلى دراسة أخرى .

وتأتى المرحلة الرابعة والأخيرة : وهى مرحلة ما بعد الاستقلال فهى التجربة المعاشة اليوم التى تتعدد جوانبها وتتفرع فروعها وتعد بطبيعة الحال البداية لوضع الأسس الحقيقية والدائمة للتعريب . ولكى نعرف ما قطعته هذه التجربة من خطوات لابد أن نلقى نظرة عامة على التعليم وماتم فيه من التعريب فى مختلف مستوياته باعتبار أن التعليم هو القاعدة الأساسية للتعريب الشامل :

— ففى المرحلة الابتدائية عُربت السنتان الأولى والثانية كما خصصت خمس عشرة ساعة للعربية فى السنة الثالثة وهكذا حتى نهاية هذه المرحلة .

— أما فى التعليم الإعدادى والثانوى فإلى جانب تعريب مادة التربية الدينية والوطنية ومادتى التاريخ والجغرافيا وتعريب بعض الإعداديات والثانويات تعريبا كاملا ، إلى جانب هذا أعطيت للعربية فى المدارس المزدوجة (التى تدرس فيها العربية بجانب الفرنسية) ساعات قد تصل إلى سبع فى الأسبوع .

— أما فى الجامعات فقد عربت بعض الأقسام فى كلية الآداب مثل فروع الفلسفة والتاريخ والجغرافيا وقسم اللغة والأدب العربى .. كذلك أنشىء قسم معرب فى كلية الحقوق .

... هذه نظرة إجمالية عما تم فى التعريب ، وهنا يخطر على البال السؤال التالى : كيف يتم التعريب على الوجه الأكمل ؟

لقد تكونت «لجنة لإصلاح التعليم» على المستوى الوطنى سنة٦٩-١٩٧٠ م لوضع خطة شاملة للتعليم وإصلاحه فى مختلف المستويات وتكونت لجان منها لجنة خاصة بالتعريب وأصدرت بعض القرارات الهامة التى تشير إلى الخط الواضح لتعريب التعليم ، ولكنها لم تنته بعد من وضع المقررات النهائية لعملها .

ولكن لكى يتم التعريب على الوجه الأكمل لابد أن يتم تعريب مرحلة التعليم الابتدائى إما دفعة واحدة ، وهذا يصعب تنفيذه لأمور موضوعية مادية تتصل بالإطارات وبالإمكانات المادية والبشرية . ولهذا نفضل عليه التعريب سنة بعد أخرى . ويمكن أن يطبق هذا الاقتراح على التعليم الثانوى خاصة الثانويات الفنية التقنية ، ويحدد لذلك زمن معين للانتهاء من هاتين المرحلتين ، ومن ثمة يصبح تعريب التعليم الجامعى نتيجة لتعريب ماقبله من سنوات التعليم . ومن الممكن جدا أن تتعرب كلية الآداب نهائيا على أن يبقى بها قسم للآداب الأجنبية أو ما تحتاج إليه البلاد من لغات حية . وكذلك بالنسبة لمعاهد المدارس العليا يمكن إدخال بعض المواد بالعربية كما هو موجود بالفعل فى بعضها ، ويمكن التدرج فى هذا من مادة إلى أخرى حتى يتم تعريبها كلية . كذلك يبدو من الضرورى تعريب كلية الحقوق — لاقسمانها — كما هو الحال اليوم لما يتطلبه الواقع ويفرضه .

يمكن أيضاً إنشاء قسم معرب بكلية العلوم ، وكذلك تعريب بعض المواد أو على الأقل بعض المصطلحات فى الكليات العملية الأخرى كالهندسة والطب وغيرها فيدخلها التعريب بالتدريج حسب خطة محددة وزمن معين.

• • •

وقبل أن نختم هذا المقال لابد أن نشير إشارة سريعة إلى تعريب الإدارة وخاصة قرار سنة ١٩٧١ الذى بدأ تطبيقه هذا العام والذى يوجب على كل

موظف فى الحكومة أو المؤسسات العامة الجزائرية أن يكون له قدر من التعليم باللغة الأم، وبالإمكان أن يبدأ بتعريب المسائل البسيطة التى لها صلة بالجمهور وقد بدىء فى تطبيقها فعلا .

ثم تأتى المرحلة الثانية لتعريب الأشياء الأكثر تعقيداً ، وهكذا حتى يأتى الوقت الذى يعم فيه التعريبُ الإدارة بمختلف أشكالها وأنواعها . ولابد أن يصحب هذا كله تعريب للبيئة العامة التى يتحرك فيها الطفل من البيت إلى المدرسة . وقد تمت أشياء فى هذا المجال ولكن بقيت جوانب أخرى لابد الانتباه منها .

هذه نظرة موجزة عن التعريب فى الجزائر وعن المراحل التى مربها وهو كقضية يعيشها الفرد العادى كما يعيشها المسئول – تعتبر قضية حيوية بالنسبة للشعب الجزائرى ، ولعل فى كلمة الرئيس بومدين فى خطابه عند تدشين جامعة قسنطينة سنة ١٩٦٨ ما يظهر اهتمامه بها فهويقول :

« وكما حرصنا على استرجاع جميع مواردنا وثرواتنا المادية سنعمل على تعزيز هذا التكوين بتربية وطنية مثلى تساعدنا على استعادة جميع ثرواتنا المعنوية وعناصر شخصيتنا والمكونات الأساسية لذاتيتنا ، ومن أهمها الوسيلة الأولى للتعبير عن هذه الشخصية وتماسكها وازدهارها حسب عبقرية شعبنا وأصالته ، وبدون استرجاع هذا العنصر الهام الذى هو عنصر اللغة فإن مجهودنا سيظل أبتر وشخصيتنا ناقصة وذاتيتنا جسما بلا روح .. » .

والواقع أن قضية التعريب ليست قضية لغة فحسب وإنما هى قضية الروح والفكر والإحساس والنظرة إلى الأشياء ، وهذا هو طموحنا لتحقيقه من خلال التعريب فقد تكون هناك صعوبات وهى موجودة بالفعل يصطدم بها التعريب من أعدائه وخصومه أو صعوبات تتصل بظروف الجزائر وإمكاناتها ، ولكن الإرادة القوية تذلل كل هذه الصعوبات وتحقق الهدف العظيم .